فنى لا ينفصل عن الحياة

عزيزى شريف :

وصلت إلىّ رسالتك الأخيرة ، وقد أعجبتنى بعض أفكارك فيها ، ولا أستطيع أن أؤيدك فى بعضها الآخر ..

إننى أعجبت باكتشافك متعة القراءة ، وتشبيهك لها بأنها أشبه بباب سحرى إلى عالم كلما أحسست أنك اقتربت من نهايته ، اكتشفت أنك ما زلت فى أوله .. وهذا صحيح ، بل إن هذا أول شروط المعرفة ، أن تعرف أنك لا تعرف ، أو أن تعرف أن ما يجب أن تعرفه كثير ، وأنك كلما ازددت معرفة ازددت اقتناعًا بأنك لا تعرف ..

وقد ذهبت كما ذكرت لى إلى معرض الكتاب منتهزًا فرصة تجمع أكبر عدد من الكتب ، وليست شكواك من ارتفاع الأسعار بجديدة ، كما أننى لا أعارضك فيها ، لكننى فى الوقت نفسه أعذر دور النشر بسبب معرفتى بارتفاع كل مكونات الكتاب من ورق وأحبار وطباعة وتشغيل ، ومثل هذا الارتفاع لم يحدث فى مصر وحدها ، بل حدث أكثر منه فى الدول الأوربية والأمريكية رغم أنها لا تعتمد مثلنا على استيراد الورق ، بل تنتجه محليا ، وأنا أعذر جيلك كله فى عدم قدرته على شراء الكتب الكثيرة التى كنا نشتريها فى زماننا بأسعار تعتبر «ببلاش» بالمقارنة إلى أسعار هذه الأيام ، والمشكلة أن الدولة تعامل دور النشر

حتى ما كان تابعًا منها للقطاع العام معاملة المؤسسات التجارية التى يجب أن تحقق ربحًا ، وكان الواجب أن تعاملها الدولة معاملة رغيف العيش ، فإذا كانت الدولة تدعم خبز البطون ، وتتكلف الملايين حتى يصل إلى المواطن بسعر معقول ، فإنها يجب أن تدعم أيضا الكتاب وهو خبز العقول ، حتى يصل إلى القارئ بسعر يستطيعه . ولكن الدولة عند الخيار تفضل خبز البطون لأنه يدخل ملايين البطون ، على خبز العقول الذى يقتصر التعامل فيه على عدد محدود من الزبائن !

لقد ابتعدت على كل حال عن قضيتنا الأصلية وهى مضمون خطابك ، وإشارتك إلى عالم الكتب على أساس أنه عالم حى من الصداقات والأفراد الذين تستطيع أن تأمن إليهم ، وأن تعيش العمر كله معهم منفصلاً عن الحياة ، معتكفًا فى مكتبك متفرغًا للقراءة ، وأنت تقول لى فى خطابك إنك فهمت لأول مرة معنى التصوف وارتباطه بالتجرد والزهد فى كثير من متع الحياة ، خصوصًا – كما تقول – إن أصدقاء الشر أصبحوا كثيرين ، وأصبح من الصعب على شاب مثلك أن يميز بين صديق الخير وصديق الشر ، أو بين ما هو خير وشر ، وما هو صح أو خطأ ، وما هو يفيدك أو يضرك ، فالأمور مختلطة ، ورائحة الشر والفساد والانحراف هى الرائحة الرائجة والمنتشرة ، وعندما يعجز الإنسان عن مواجهة هذا الوحش الضارى فالأفضل أن يعتزل وأن ينكفىء على كتابه يختاره صديقًا مخلصًا وفيًّا فاهمًا لأهدافه وحدوده ..

وما تقوله أستطيع أن أفهم بواعثه الطيبة ، ولكننى لا أستطيع أبدًا أن أتركك عليه ، فماذا لو أن كل واحد انسحب من هذه الحياة واعتزلها ، وخشى على نفسه من فتنة السوء وأهل الفساد ، إن هذا فى الواقع ليس تصوفًا ولا اعتكافًا ، بل الأصح أن نسميه هروبًا وتخاذلاً عن مواجهة الواقع ، وعدم قدرة على تغييره إن كان يحتاج إلى تغيير .

وإذا كان الرسول – كما لابد أن تعلم – قد رفض فكرة الاعتكاف لمجرد قراءة القرآن والتعبد ، وقال قولته الشهيرة عندما رأى شخصًا ينفق كل وقته

فى المسجد «أخوه أعبد منه» وذلك عندما سأل عمن ينفق عليه فأجابوه بأن أخاه هو الذى يفعل ذلك ، لأنه إذا كان البعض يتصور أن العبادة هى الصلاة والصوم وقراءة القرآن فهو لا يعرف حقيقة الإسلام ، ويجهل أن هذا الإسلام ليس أسلوب عبادات فقط ، وإنما أيضا منهج متكامل للحياة ، وأن جزءا أساسيًا من الحياة العمل والكفاح ومواجهة الوقائع ، فإذا كنت تتصور أنك باعتزالك الحياة وبعدك عنها وإغلاقك الباب على مكتبك قد أحسنت صنعًا ، فإن الواجب يحتم أن أقول لك : بل أسأت صنعًا ، وإذا كانت هناك قيمة لكل ما تقرأ وكل ما تتلو فهو أن تفيد به نفسك وتفيد به الآخرين ، تمامًا كما يفعل نحل العسل عندما يسعى ويدور بين الأزهار يرتشف منها رحيقًا ، ثم يحول ذلك كله إلى إفراز شهى يفيد الإنسان .

فلا تنفصل عن الحياة ، ولا تعتزلها ، فأنت ابن زمانك وابن جيلك ، ولو لم يرد الله أن تعيش فى زمانك الذى ولدت فيه لجاء بك فى زمان آخر ، إن هذه هى مشيئته هو وحده ، اختيار الزمان ، ولهذا فإن تفكيرك فى الهجرة من هذا الزمان إلى زمان سابق هو رفض لمشيئته ، والنجاح الحقيقى هو أن تعيش زمانك ملتزمًا بمنهج وأسلوب الله ، بادئًا بنفسك كقدوة فيما تطلبه من الآخرين ، وعندما يتحقق لك ذلك فسوف تكتشف دون عناء طريق الخير من الشر ، وصديق الهداية من صديق الضلال ، سوف تجد فى داخلك من يقودك ويرشدك ويدلك ، وهو ما يذكرنى بخطاب قديم ، ما زلت أذكر كلماته لأننى قرأته وأنا فى سن صغيرة جدًا ، وهى السن التى تستطيع أن تحفظ عن ظهر قلب كل ما يلقى فيها من عبارات وجمل بسبب خلو صفحات الذاكرة ، ومن ثم القدرة على الاستيعاب .

هذا الخطاب أرسلته أم أرملة إلى ولدها ، وكان تلميذًا فى إحدى المدارس الثانوية ، وقد اكتشفت بغريزة الأم الحيرة التى يمكن أن يواجهها ولدها بين

الخير والشر ، وكيفية الخيار بينهما ، فكتبت إليه هذا الخطاب الذى تقول فيه :

ابنى العزيز :

سوف تصبح رجلاً فى يوم ما ، وستجد نفسك يومئذ حائرًا مترددًا أمام إغراء إخوان السوء لك بارتكاب الإثم والمعصية ، وتنكب الطريق المستقيم ، مصورين لك الخطيئة فى صور براقة زاهية ، ولمثل هذه اللحظة التى يتملكك فيها الشك ، وتتعرض رجولتك لأقسى امتحان ، أكتب إليك رسالتى هذه لأوصيك بما أرجو أن يخرجك من ذلك المأزق ، ويجعلك تجتاز الامتحان بنجاح ، إن عوامل الإغراء والتضليل فى تلك اللحظة ستكون من القوة بحيث تملأ خيالاتها عينيك ، وتدوى أصواتها فى أذنيك ، وتأخذ على شعورك كل سبيل ، ولكنك من خلال تلك الظلمات المتراكمة ستلمح بصيصًا من النور ، وستسمع فى أعماقك صوتًا ضئيلاً خافتًا يهمس لك بأن تتبع ذلك البصيص ليدلك على طريق الهداية والنجاة ، فوصيتى لك يا بنى أن تصغى لهذا الصوت ، وأن تجاهد نفسك لكى تفعل ما يشير به عليك . فما هو إلا صوت الحق ، أو هو صوت الله .

إن شياطين الغواية سوف تتفانى فى سبيل تضليلك ، وسوف توهمك بأنك إن التزمت جانب الخير فسينفر منك الناس وتعيش وحيدًا فى الحياة ، ولكن ثق أنك لن تكون وحيدًا ، إن الله سيكون معك ، فهو جل شأنه صديق الأخيار ، وما دام الله فى جانبك أثناء نضالك فثق أن النصر لك فى النهاية ولو كان العالم كله ضدك.

* * *

هذه هى الرسالة التى بعثت بها أم إلى ابنها ، وهى رسالة قديمة جدًّا ، ولكن معانيها ستبقى مدى الحياة ، إن النفس الشريرة أمارة دائمًا بالسوء ،

والنفس الخيّرة أمارة دائمًا بالخير ، فلكى تعرف الفرق بين الخطأ والصواب ، بين النور والظلام ، بين الهدى والضلال ، فكن أولاً نفسًا خيّرة ، وبهذه النفس الخيّرة تستطيع أن تواجه الحياة ، وتعرف كيف تنجو من مخاطرها ، لأن هذه النفس الخيرة سوف تكون أشبه بالبوصلة التى يشير مؤشرها إلى اتجاه محدد مهما تغير موقعها ..

عزيزى شريف :

لك أمنياتى ودعواتى ، وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة أرجو أن تستمتع بما تقرؤه ، وبما تراه ، فى مكتبك وخارج مكتبك ، فى البيت وفى الشارع ..

قبل أن تضيع الفرصة وتصبح معزولاً عن كل العالم

عزيزى شريف :

إننى أرجو وأتمنى ألا يكون قد فاتك تعلم لغة الكومبيوتر ، فإن كان هذا حدث – وهو مالا أرجوه – فالفرصة أمامك ما زالت تنتظر ، اليوم قبل الغد ، فكلما كانت سنك صغيرة كانت فرصتك أكبر ، وأنا شخصيًا لم أعرف أهمية وقيمة الكومبيوتر ، وما سيحدثه فى كل العالم إلا عندما حضرت فى الشهر الماضى معرضًا اشتركت فيه مجموعة الشركات الموجودة فى مصر ، التى تتعامل مع أجهزة الكومبيوتر ، وهى كلها شركات وكيلة لشركات أجنبية ، ورغم الغرائب التى قدمتها فى هذا المعرض فقد عرفت أن هذا المعروض لا يمثل آخر الابتكارات والقفزات فى عالم الكمبيوتر ، لأنه أصبح معروفا أن الشركات الكبيرة لا تعرض إنتاجها الجديد إلا بعد أن يكتمل لها إنتاج نوع أحدث !

ولقد كان تفكيرى إلى وقت قريب أن الكومبيوتر يقتصر تعامله على الأرقام ، وكان أبسط نموذج له فى رأيى «الكالكيليتور» الذى أصبح معروفًا لنا جميعًا ، والذى يقوم بسرعة بأعقد حسابات القسمة والضرب والجمع والطرح ، وبعض هذه الأجهزة الحاسبة لها أيضًا ذاكرة تساعد على القيام بأكثر من عملية فى وقت واحد .

ورغم أن هذا الجهاز – الحاسب الصغير – كان يعد عند ظهوره ، ثورة كبيرة ، وكان جهازًا كبيرًا ثم أخذ يصغر ويصغر حتى وصل إلى حجم عقلة

الأصبع ، هذا الحاسب أصبح نقطة فى بحر من الغرائب والعجائب والأعمال التى استطاع الكومبيوتر تحقيقها .

إننا عندما نفكر فى وسائل الاتصال بين العالم نجد أنها تقوم على أربعة عناصر : الرقم ، والحرف ، والخط ، والنقطة .

أما الرقم فهو أساس لغة الأعداد ، وأما الحرف فهو أساس لغة الكتابة ، وأما الخط فهو أساس أى رسم ، وأما النقطة فهى أساس الصورة ..

فمن الأرقام تكون الأعداد ، ومن الحروف تكون السطور والصفحات المكتوبة ، ومن مجموع الخطوط يكون مجموع الرسوم ، أما من مجموع النقط بألوانها المتدرجة فتكون الصورة .

أليست هذه هى وسائل الاتصالات بين الناس فى أى مكان فى العالم ؟

إن كل هذه الوسائل يتعامل بها الكومبيوتر اليوم ، فهو يحسب بالأرقام ، ويكتب بالحروف ، ويرسم بالخطوط ، ويصور بالنقط .

دعانى أحد الأصدقاء قبل أسابيع لزيارة مصنعه الجديد للملابس الجاهزة ، أدهشنى أن منظر المصنع من الخارج لا يعكس الضخامة المعروفة لمصانع الغزل والملابس القديمة التقليدية ، واكتشفت أن التطور الذى أحدثه الكومبيوتر قد غير كل المفاهيم التى كنا نعرفها ، فالأنوال العديدة التى كانت توضع على شكل صف طويل تم اختصارها فى مكنة واحدة صغيرة ، وعن طريق جهاز كومبيوتر بالمكنة يقوم الجهاز بإعطاء الأوامر لهذه المكنة لتشكيل الخيوط بألوانها المتعددة وإخراجها بحسب الرسم الموضوع فى برنامج الكومبيوتر ، وأصبح من الممكن إذا أراد مهندس المصنع تغيير أى لون أو استبداله ، أن يعطى مجرد أمر إلى جهاز الكومبيوتر الذى يعطى بدوره الأمر إلى المكنة فيتم التغيير ، لكن الأغرب هو تصميم رسوم الأقمشة بواسطة الكومبيوتر ، واستبدال وتغيير عشرات الألوان فى ثوان على شاشة الاستقبال ، للوصول إلى الرسم والألوان التى يراها المصمم

أفضل الأذواق ، فيطبعها على شريط صغير كاسيت ثم يدخلها الكومبيوتر الذى يتولى إعطاء الأوامر لمكنة التشغيل .

سرعة ، ودقة ، وإنتاج متعدد ، وكل هذا بمجرد مهندس مصمم وعامل فنى يراقب المكنة الصغيرة ..

ولكن هل هذا فقط هو الكومبيوتر ؟

قبل أيام حضرت مناورة بالذخيرة الحية لقواتنا المسلحة فى منطقة المضايق فى عمق سيناء ، كانت هناك أهداف محددة أصابتها طلقات المدفعية بإتقان بالغ .. لكن الغريب أن المدافع التى كانت تصيب هذه الأهداف كانت موجودة على مسافة أكثر من عشرين كيلو مترا ، مسافة لا يستطيع الواقف على المدفع بالطبع أن يرى من ورائها الهدف ، ولكنه بالعقل يراه عن طريق أجهزة الكومبيوتر التى تتولى حساب وسرعة الطلقة !

ونفس الشىء بالنسبة لصواريخ الطائرة ، والتى يطلقها الطيار من مسافات بعيدة ..

وعندك نموذج الصواريخ التى تتبادل إيران والعراق إطلاقها فى الأيام الأخيرة لحربهما على المدن ، فهذه الصواريخ تطلق من مسافة مئات الكيلومترات . ولكن أجهزة الكومبيوتر تحسب مواقع أهدافها قبل الإطلاق ، وتظل تراقبها وهى منطلقة متجهة إلى الهدف ، بحيث إذا حدث وتبين أنها سوف تصيب هدفًا غير مطلوب يمكن تفجيرها فى الجو قبل وصولها إلى هدفها ، وهناك أنواع أخرى من الصواريخ يمكن تغيير مسارها فى الجو وإعطاؤها الأوامر بالاتجاه إلى هدف آخر ..

هذا التطور المذهل الذى ألغى البطولة والفروسية من الحروب ، وجعلها تعتمد على الأجهزة والحاسبات الإلكترونية ، لم يتحقق إلا بعد ظهور الكومبيوتر والتطور المذهل الذى مر به .

ولكن ما هو الكومبيوتر ؟ ومتى بدأ ظهوره ؟ وكيف تطور ؟

إن فكرة الكومبيوتر بدأت فى الواقع بمحاولة توصل الإنسان إلى وسيلة تساعده على العد والحساب ، وعبر تطورات كثيرة كان أول كومبيوتر يعمل بالكهرباء هو ذلك الذى نجحت فى صناعته كلية الهندسة بجامعة بنسلفانيا فى أمريكا ، وقد صنعته لحساب الجيش الأمريكى بصورة سرية بالغة أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان هذا الكومبيوتر مكونا من ١٨ ألف صمام كهربائى كان كل صمام منها فى حجم اللمبة الكهربائية .

أما قدرة هذا الكومبيوتر فكانت القيام بـ ٣٠٠ عملية فى الثانية الواحدة ، وكان يحتل حجرة مساحتها تزيد على ١٥٠ مترًا مربعًا !

كان هذا هو أضخم عمل قد توصل إليه الإنسان قبل نحو ٤٠ سنة ، أما اليوم فإن أضخم كومبيوتر يقوم بعمل ٢٥٠ مليون عملية حسابية فى الثانية الواحدة ، تصور !

إن الوقت كما تعرف يتم حسابه بالساعة والدقيقة ، وفى البطولات الأوليمبية فإن الزمن يقاس بالدقيقة والثانية ، ولكن بالنسبة للكومبيوتر فإن الثانية الواحدة يتم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء : الملى ثانية وتعادل واحدا على ألف من الثانية ، والميكرو ثانية ، وتعادل واحدا على المليون من الثانية ، ثم النانو ثانية ، وتعادل واحدا على ألف مليون من الثانية !

وكما يقول أحد الكتب فى الكومبيوتر ، فإنه لكى نتصور هذه السرعة فإن السيارة التى تسير بسرعة ٦٠ كيلومترا فى الساعة وتقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية فى حوالى أربع ساعات فإنها تسير أقل من ٢ سنتيمتر فى كل ملى ثانية ، ومركبة الفضاء التى تسير بسرعة ١٥ ألف كيلومتر فى الساعة تسير فى الثانية الواحدة مسافة ٤٢ كيلومترًا أو ما يقارب ٤ سنتيمترات فى الميكرو ثانية !

وقد لخص أحد الباحثين تطور سرعة الكومبيوتر على الوجه التالى :

فى سنة ١٩٥٠ كان الكومبيوتر يعمل بسرعة ألف ميكروثانية ، وفى سنة ١٩٦٠ وصلت سرعته إلى ٥ ميكروثانية ، وفى سنة ١٩٧٠ أصبحت السرعة ٨٠ نانو ثانية وفى سنة ١٩٧٥ قفزت إلى ٢٥ نانو ثانية ، وفى سنة ١٩٨٠ أصبحت السرعة ٥ نانو ثانية !!

وحتى تعرف معلومات بسيطة عن الكومبيوتر يكفى أن أقول لك إن هذا الكومبيوتر عبارة عن ذاكرة يستطيع أن يحتفظ فيها بخطوات حل أى مسألة مهما كان عددها ، ولكى يعمل الكومبيوتر يجب أن يكون له برنامج وبيانات ، أما البرنامج فهو عبارة عن مجموعة من الخطوات أو الأوامر التى تحدد للكومبيوتر ما يجب أن يفعله لحل المشكلة أو المسألة ، أما البيانات فهى مجموعة الأرقام والحروف المطلوبة لحل المشكلة أو المسألة .

وذاكرة الكومبيوتر عبارة عن آلاف المخازن الصغيرة التى يتم إدخال البيانات والمعلومات إليها ، وتقاس سعة الكومبيوتر بعدد الألوف أو الملايين الموجودة فيه من هذه المخازن ، التى يمكن أن يوضع فى كل مخزن منها رقم أو حرف ، حيث يتحول هذا الرقم أو الحرف بعد ذلك إلى كود أو شفرة ، يتفهمه الكومبيوتر .

وبفضل التطور الذى دخل على وسائل إدخال المعلومات إلى ذاكرة الكومبيوتر ، أصبح من الممكن تخزين ملايين الحروف فى شريط كاسيت صغير أو أسطوانة صغيرة .

لست أحاول هنا بالطبع أن أعلمك الكومبيوتر ؛ فأنا لست متخصصًا فى ذلك ، وكل معلوماتى أستقيها من قراءات بدأت تشدنى بعد أن عرفت حجم التطور الذى أصاب هذه الأجهزة ، واكتشفت أكثر أنه إذا كانت محاولات الكثيرين لإيجاد لغة واحدة يتحدث بها العالم ومنها لغة الاسبرانتو التى اخترعها ل . زانهوف ، وتحمس لها الكثيرون وعقدوا من أجلها المؤتمرات والحملات

ونشروا بها عدة مطبوعات ، فإنها لم تستطع أن تحقق أمل مخترعها فى أن تصبح حديث العالم .

الكومبيوتر وحده هو هذه اللغة التى يتحدث بها العالم والتى سيتعامل بها العالم ، وستصبح فى خلال سنوات محدودة ، وسيلة تفاهمه فى الاجتماعات والمؤتمرات والبيوت والمحال والمكاتب ، سوف يحضر الوزراء اجتماعات مجلس الوزراء فى المستقبل القريب ومع كل منهم حقيبة صغيرة بداخلها كومبيوتر يضم كل الوثائق الخاصة بمعلومات وزارته ، سوف تقوم ربة البيت بالاتصال بالبقال والفكهانى والصيدلى عن طريق الكومبيوتر ، إنها لن تكون ثورة وإنما لغة ، يتحدثها الملايين ويتعاملون بها ، ومن يفته قطار تعلمها فسوف يجد نفسه معزولاً عن هذا العالم .. فحاول يا ولدى ألا تعزل نفسك مستقبلاً ، وانتهز الفرصة بسرعة قبل أن يفوتك الوقت وتكبر وتجد نفسك وسط عالم يتحدث لغة لا تعرفها ولا تفهمها .

ولك أمنياتى .

من فوق الأحزان!

عزيزى شريف :

وحشتنى ، فمنذ شهرين لم أكتب إليك ، ومازلت رغم مرور هذه الفترة الطويلة أعانى مشاعر الاكتئاب والحيرة والرغبة فى أن أعتزل الحياة ، دعنى أفك معك قليلاً أزرار قميص الأحزان الذى يخنقنى منذ فقدت شريكة رحلة طويلة من حياتى بل قل كل حياتى ، بدأناها من الدور الأول وصعدنا معًا سلالم الكفاح الشريف راضين بكل ما كنا نحصل عليه ، رحلة طويلة من العناق الذى تشابكت فيه نفوسنا حتى أصبح بداخل كل منا جزء من الآخر .. ورغم معاناة المرض الذى تحملته هى وتحملته أنا معها فلم أشعر يومًا بالضيق ، لأنه من الصعب بل من المستحيل أن يضيق الإنسان بنفسه ، وقد كانت شريكة الحياة هى نفسى .. ومن الغريب أننى كنت طوال فترة مرضها وعجزها أشعر بالنشاط وبالأمان معًا ، وعندما غربت شمسها بدأت أحس بضعفى وكسلى وخوفى وقلقى ..

فى حياتها كنت كالقطار الذى يعرف له قضبانًا يسير فوقها ، وبعد رحيلها اختفت هذه القضبان وبدأت أشعر بأننى مثل قطار قديم كان موجودًا فى مصر قبل أن تولد وكنا نسميه ، قطر الدلتا ، لأنه كان مخصصًا للسير بين المدن الصغيرة فى شمال الدلتا ، قطار بلا نوافذ ولا أبواب وأحيانًا يستطيع أن يسير بلا قضبان لأنه كان يسير خمس دقائق ويستريح خمس ساعات ، فهل فعلا أصبحت «قطار الدلتا» فى زمن الصواريخ والكونكورد ؟!

إننى فى خلال هذين الشهرين حاولت الهروب إلى الخارج ، ومن مكانى الجديد الذى أصبحت أشعر فيه بالضعف والهزال بدأت أكتشف مدى السرعة التى يتحرك بها الآخرون ، ودعنى أقل لك شيئًا ، إن عالم القرن الحادى والعشرين لن يضم هذه التقسيمات التقليدية التى نعرفها : دول غنية ودول فقيرة ، أو دول متقدمة ودول متخلفة ، هذه تقسيمات سوف يسبقها تقسيم آخر وهو دول سريعة ودول بطيئة ، أرجو عندما تزور أى دولة أن تتأمل إيقاع الحياة فيها وسوف تدرك الفرق الكبير بين هذه الدول السريعة وتلك الأخرى البطيئة ، ومعظم التطورات التكنولوجية التى تشهدها تدور تقريبًا فى توفير عنصر السرعة . أبسط نموذج أصبح معروفًا لنا الروموت كونترول الذى قد تتصور أنه اختراع يساعد على الكسل بينما الواقع أنه يساعد على السرعة ، فبدلاً من أن تذهب إلى جهاز التليفزيون وتقلب محطاته ويستغرق منك ذلك ٢٠ أو ٣٠ ثانية فإنك بالروموت كونترول تفعل ذلك فى أقل من ثانية .

والأجهزة الكهربائية التى تتضاعف سرعتها هدفها أن تنهى كل شىء فى سرعة ، ولأن حياة أى مجتمع تقوم على الاتصالات فقد أصبحت السرعة أهم سمة من سمات هذه الاتصالات ، اذهب إلى أى بلد أوربى تجد كثيرين من المواطنين يمسكون أجهزة التليفون فى أيديهم ويسيرون بها فى الشوارع ، ويدخلون بها المطاعم ويتحدثون ويتلقون مكالماتهم وهم يسيرون أو وهم يتسوقون أو وهم فى المطاعم يأكلون ، لم يعد المواطن فى حاجة إلى أن يذهب إلى كشك التليفون بل أصبح التليفون جزءا متنقلاً معه أينما يذهب ، وعن طريق الأقمار الفضائية فإنه يتصل بكل العالم وهو فى الشارع ، وأجهزة الفاكس التى تنقل الصفحات المكتوبة بنفس الخط هى أيضا نموذج آخر من نماذج السرعة ..

وسوف تشهد فى القريب العاجل أجهزة تصوير تحمض لك الصور وتطبعها فى دقائق ، سرعة فى كل شىء ، وقد بدأ الحديث من اليوم عن مدارس الغد

التى سوف يكون التليفزيون هو المدرس الأساسى فيها ، فعلى شاشة كبيرة سوف يقوم المدرس بتشغيل فيلم يشرح فيه تفاصيل الدرس ، وسوف يعيش تلاميذ الغد أحداث الدرس ويرونها ويساعدهم ذلك على استيعابها ..

فدرس التاريخ سوف يعرض لهم صورًا من الشخصيات التاريخية والدول والمعارك والحروب التى يتناولها الدرس ، ودرس الكيمياء سوف يجعلهم يذهبون من خلال العدسة إلى مناجم المعادن ، ومعرفة كل خواصها ومشاهدة نتائج مزجها فى المعامل ، ودرس الإنجليزى سوف يشرح لهم بحروف ضخمة كل ما يجب معرفته .. وهكذا ..

وهناك بالطبع غير هذا كله جهاز الكومبيوتر الذى يمثل وحده ثورة فى السرعة ، فلن تحتاج فى الغد إلى هذه المساحات التى يتم فيها تخزين أرشيف الأوراق والملفات والكتب ، فعلى أسطوانة صغيرة فى سمك قطعة النقود المعدنية سوف يتم حفظ صفحات نحو ١٠ آلاف كتاب !

وعن طريق الكومبيوتر سوف تتبادل الحوار مع كل الذين تريد التعامل معهم ، البقال والجزار والسوبر ماركت والبنك ، الخ ، وفى المجال الصحفى سوف يقوم محرر الغد بكتابة مقاله بالكومبيوتر ليتم فى نفس الوقت الذى يكتبه فيه جمعه ووضعه فى المكان المخصص له فى الصحيفة دون حاجة لمروره على الأيادى العديدة التى يمر بها اليوم .

وهذه السرعة فى المعاملات تحتاج إلى لغة جديدة اسمها لغة العلم والكومبيوتر بحيث يصبح من لا يتعلمها أميًّا جاهلاً رغم معرفته بالقراءة والكتابة ..

وسوف تفتح جهاز التليفزيون فى الغد وتشاهد برامج العالم المفتوح أمامك ، فسوف تقضى التطورات التكنولوجية على الحواجز التى تمنع امتداد الإرسال التليفزيونى إلى كل العالم ، وكما يحدث عندما يتم إذاعة إحدى المباريات العالمية أو الأحداث الهامة فى وقت واحد على كل أجهزة التليفزيون من خلال إذاعتها

بالأقمار الصناعية فسوف يحدث ذلك بالنسبة لبرامج محطات التليفزيونات مستقبلاً ..

وأنت تعرف أنه عندما ينقل إليك التليفزيون حاليا إحدى المباريات عن طريق القمر الصناعى فإن محطة الاستقبال الرئيسية تقوم باستقبال هذه المباراة ، طبقًا لترتيبات معينة ثم تعيد إرسالها إلى أجهزة التليفزيون فى البيوت .. والتطور القادم يقضى على هذا الوسيط بين القمر الصناعى وأجهزة البيوت بحيث يقوم الجهاز المنزلى بالتقاط البرامج التى تنقلها الأقمار الصناعية مباشرة ..

ولو أردت أن أعدد لك عشرات أو مئات النماذج فى كل مجال لاحتاج منى ذلك إلى صفحات عديدة ولكننى باختصار شديد أقول لك إنه ليس هناك جهاز واحد موجود فى عالم اليوم لن يدخل عليه التطور خلال السنوات العشر القادمة ، بحيث تدخل القرن الحادى والعشرين فى عالم جديد ينقسم إلى دول بطيئة تتحرك ببطء وتفكر ببطء وتتقدم ببطء ، ودول أخرى سريعة تتحول بسرعة وتفكر بسرعة وتتقدم بسرعة ، ودول تحسب ساعتها بالثانية والجزء من الثانية كما هو حادث الآن فى البطولات الرياضية .

ومثل الذى ينتمى إلى جيلى لو امتد به العمر سوف يكون مثل «العقلة» فى زور هذا العالم» .

فلا نحن نستطيع تعلم لغة السرعة التى سيتعامل بها عالم المستقبل ، ولا نحن سنكون فى وضع متخلف تمامًا لأننا نعرف عن التكنولوجيا وعن أدواتها ووسائلها ولكن قدراتنا على استيعاب تطوراتها سوف يكون محددًا ، والبركة فيكم أنتم الشباب الذين سوف تكون أمامكم الفرصة للتعايش مع هذا المستقبل بمتغيراته وتطوراته .. وإياكم كجيل أن تتخلفوا عن اللحاق بهذا المستقبل .

لقد كنت أريد أن أكتب إليك طويلاً خصوصًا بعد الغيبة التي غبتها عنك ، ولكن أرجو أن تترفق بى وأن تعذر قدراتى ، فلعلى أصبحت أنتمى إلى جيل قطار الدلتا البطيء الذى يسير خمس دقائق ويستريح خمس ساعات ، وكل

ما أرجوه أن تكون أزمة طارئة لا تطول معى .. ولعلك تسامحنى على محاولتي الصريحة التخفيف آمامك عن بعض أحزانى ، فما بيننا يسمح لى بذلك واثقًا من أنك سوف تتقبله بسماحة الأبناء البررة ..

لك كل أمنياتى فى مطلع هذا العام الجديد ، فلا أخفيك أن سنة ٩٠ كانت من أسوأ السنوات التى عشتها سواء على المستوى الخاص أو العام ، ويكفى أننا كأمة أمضينا نصفها – ولا نزال – ونحن أسرى هموم أزمة الاحتلال العراقى للكويت ، فلنتطلع إلى هذا العام الجديد بكل الآمال ، ولتشرق شمسه لتبدد سحب الأحزان وغيوم المشاكل ونخرج من أزمتنا لنشارك العالم السريع الخطى فى خطواته ووثباته .

يضربك أبوك هذا أمر مقبول
يضربك أى شخص آخر هذا مرفوض .. لماذا ؟

عزيزى شريف :

عندما كنت فى سنك أذكر كم كانت فرحتنا كبيرة أنا وزملائى فى ذلك الوقت بشهوة الجدل ، بعد أن اكتشفنا فجأة أن لنا عقولاً تفكر ، وألسنة تتكلم ، وأيدٍ تستطيع أن تضم قبضتها وتطرق بقوة فوق الموائد الموضوعة أمامنا ونحن نتحدث بكل الحماسة والكبرياء عن أفكارنا وآرائنا ..

ولم أعرف إلا متأخرًا حكمة «المناظرات» التى كانت تقيمها المدارس فى ذلك الوقت ، ثم «جمعية الخطابة» فى الجامعات ، وكانت تدعو لها التلاميذ والطلاب لكى يسمعوا مناظرات تجرى حول موضوعات كان من أشهرها : أيهما أقوى تأثيرًا ؟ الكتابة أم الخطابة ؟ ومن الذى يقود الوطن ؟ قوة الشباب أم حكمة الشيوخ ؟ وهل وجدت المرأة للعمل أو للبيت ، وماذا تفضل ؟ العمل فى الحكومة أم فى التجارة ؟

موضوعات كما ترى جدلية ، وكانت الأجيال تتوارثها جيلاً بعد جيل ، ولو كتب لجيل هذه الأيام من التلاميذ فى المدارس والطلبة فى الجامعات أن يستمر على نفس منوال الذين سبقوه ، لكانت هذه الموضوعات على أرجح الاحتمالات من بين الموضوعات المطروحة حتى اليوم إلى جانب بعض الموضوعات الأخرى التى تستلهم روحها ومفاهيمها من العصر ..

وأذكر أننا فى جميع الموضوعات التى طرحناها للمناظرة فى ذلك الوقت كنا مقتنعين بالرأى وضده ، نصفق لمن يقول إن المرأة وظيفتها في داخل البيت حيث الأبناء والمملكة الخاصة التى تعيش فيها ملكة ، ونصفق أيضًا لصاحب الرأى الذى يقول إن مهمة الإنسان – ذكرًا أو أنثى – هى العمل ، وأن عصر الحريم والاختباء خلف شيش النوافذ قد انتهى ، وأصبح من مسئولية المرأة بل من واجبها أن تشارك الرجل مهمة إقامة البيت المشترك وتدبير نفقاته واحتياجاته ..

صحيح أننا كنا نتحمس لأحد الرأيين ، ولكننا أمام قوة وأسانيد الرأى الآخر لم نكن نستطيع إخفاء إعجابنا ، وهكذا فإننا انتهينا من سنوات الدراسة ومازالت هذه الموضوعات تحتمل أحد الرأيين ، فما معنى هذا ؟

معناه أن هناك قضايا خلافية وجدلية تتوارثها الأجيال ولا تستطيع أن تنتهى فيها إلى رأى ، ولكن حاجتنا بحكم سن الشباب إلى الجدل وإلى إثبات الذات كانت تجعلنا نتحمس لرأى ضد الآخر ..

وفى مرحلة أخرى من الشباب كان إحساسنا أننا أصبحنا نعرف ما لم يسبق لغيرنا أن عرفه ، وأننا بأفكارنا وآرائنا وقوتنا نستطيع أن نسخر من كل أفكار الأجيال التى سبقتنا والاستهزاء بها ، فنحن القوة ، الجيل الذى سبقنا هو مظهر من مظاهر الضعف ، ونحن الأمل ، والذين سبقونا لم يحققوا لنا غير الألم والمشاكل والمتاعب !

والشباب بطبيعته فورة وثورة وتمرد ، وأول ما يحلو للشباب أن يستعرض فيه قوته الاختلاف فى الرأى ، والثورة على كل الأفكار التقليدية السائدة فى المجتمع ، وتوجيه الطعنات لهذه الأفكار ..

أنتم نيام وقد جئنا لنوقظكم ..

أنتم عرقى ونحن الشباب الذين سننقذكم !

وكل عصر له أفكاره التى يستل لها الشباب سيوفه ويبارزها ويعلن معارضته لها ، وما أكثر القضايا والموضوعات التى اختلفنا عليها ، ثم بعد أن كبرنا أصبحنا ننظر إلى هذه المرحلة التى مضت بالإشفاق والسخرية ، فما أعجب ما كنا نناقشه من أفكار ، وما أكثر ما أقمناه لأنفسنا من أوهام عشنا فيها ، وبددت السنوات ومسئوليات الحياة سحبها وطردتها طردًا من تفكيرنا .

فهل فى هذا الإطار يمكن أن ننظر إلى الموضوعات الغريبة التى يحلو لشباب اليوم أن يفجرها قنابل للجدل والحوار ؟!

غريب بالنسبة لى – ولكنه ليس غريبًا للشباب – هذه القضايا المطروحة اليوم على ساحة الحوار بين الشباب ، ومنها مثلاً : قضية الغناء والتمثيل والموسيقى ، هل كل هذه الفنون حرام أو حلال ؟ وتربية اللحية للرجل ، هل هى سنة أو واجب ؟ وارتداء الجلباب أليس يمثل الزى الإسلامى الذى كان يرتديه الرسول والصحابة وكل المسلمين فى ذلك الوقت ؟ والنقاب ، أليس أمرًا مفروغًا منه ؟ وحديث الشاب إلى الفتاة متى يعتبر حرامًا ؟ وما هى حدوده ؟ والصلاة خلف العلماء المعينين فى الدولة هل هو جائز ؟ ألا يتقاضى هؤلاء العلماء مرتبات من الدولة تجعلهم بحكم ذلك منتمين إلى السلطة ولا يجب طاعتهم لأنهم أصحاب مصلحة ؟!

وهكذا .. قضايا غريبة كانت وستبقى وستظل موضوعات جدل وحوار وخلاف ، تمامًا مثل هذه القضايا التى كنا نثيرها قديما فى مناظرات المدرسة والجامعة ونصفق لكل رأى ، ثم ينتهى الأمر بعد أن نكون قد أفرغنا شحنة الذخيرة التى يجد الشاب نفسه فى هذه السن اليافعة مشحونًا بها ..

ومن الممكن أن ننظر إلى هذه الموضوعات التى يثيرها بعض الشباب اليوم على أساس أنها قضايا مناظرات ، يمكن أن يتحدث فيها واحد أو أكثر برأى ويقابله واحد أو أكثر بتأييد للرأى الآخر ، ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد ..

لكن ما أصبحنا نسمع عنه وتعرفه أنت يتجاوز كثيرًا كل هذه الحدود ، فتلك القضايا لم يعد ينظر إليها ابتداء على أساس أنها قضايا خلاف فى الرأى ، وإنما هى قضايا انتهت فيها مجموعة معينة إلى رأى معين فى كل منها ، وهذا الرأى هو الذى يسود ويجب أن ينفذ ..

بل أخطر من ذلك أن هذه المجموعة وصل اقتناعها إلى حد تصور أن كل من يخالف رأيها يرتكب منكرًا ، وأنه بمقتضى الحديث الشريف يجب تغيير هذا المنكر بالقوة ، لأن الرسول ﷺ قال : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان» .

والحديث من وجهة نظرهم يضع لوسائل تغيير المنكر درجات ، تبدأ أولاً باليد وهو ما يعنى القوة ، ولما كان الشباب يعنى القوة فيكون إذن من واجب الشباب أن يستخدموا قوتهم فى تغيير هذا المنكر ..

وهكذا سمعنا عن تعرض حفلة أقيمت فى إحدى جامعات الصعيد للاعتداء من جانب مجموعة تغيير المنكر ، وسمعنا عن حوادث كثيرة جرت لشبان «ضبطوا» يتحدثون إلى زميلاتهم فى الجامعة !

عزيزى شريف :

إننى كما تعرف لست من هذا النوع الذى يهوى أن يحتل مكان الحكماء وإلقاء مواعظ النصح والإرشاد .. وإذا كنت أكتب إليك فإنما على طريق حوار الأجيال ومحاولة تزويدك بخبرات سبقتك فى دروب الحياة والسنوات ..

وإذا كنت واثقا من شىء أستطيع أن أؤكده لك ، فهو أن هؤلاء الشبان أنفسهم الذين يتصورون أن من حقهم بل من واجبهم تغيير المنكر بالقوة .. قوة أيديهم ، وقوة عضلاتهم ، وقوة ما يحملونه من أسلحة .. هؤلاء الشبان أنفسهم سوف يدهشون بل سوف يرتاعون كثيرًا عندما تمتد بهم السنوات

من هول هذه الأفكار التى كانوا يحملونها فى شبابهم ويدافعون عنها ويريدون فرضها فرضا على المجتمع !!

لك أن تتصور مثلا كيف يتحول أى مجتمع إذا استولت على القوة فيه جماعة من الجماعات وأعلنت إرادتها على هذا المجتمع .. من المؤكد أنه ستخرج لمواجهتهم جماعة أخرى .. وثالثة .. ورابعة .. بل يمكن أن يتحول كل فرد إلى مؤسسة خاصة يحصن نفسه ضد الآخرين أو يفرض فكره على الآخرين ..

إن غش اللبن منكر ، فماذا لو أن شخصا أمسك بمن يغش اللبن وضربه فى الطريق العام ؟

إن مخالفة التسعيرة منكر .. فلماذا لا نسمح للطلبة بأن يهاجموا أى محل يخالف صاحبه التسعيرة ويحطمون له المحل ؟

إن هناك من يؤكد أن التعامل مع البنوك التجارية حرام . فلماذا لا تقف مجموعة من الشباب على أبواب هذه البنوك وتتصدى لمن يتعامل معها وتمنعهم بالقوة ؟

إن غش الموظف فى عمله ، والعامل فيما يقوم به ، منكر ، فلماذا لا يشكل الشباب كتيبة خاصة تتولى التصدى لهؤلاء الذين يخونون أمانة العمل ؟!

لماذا فقط يقف المنكر عند حدود الجلباب واللحية والنقاب والموسيقى والغناء؟

المنكر كمنكر لا تجوز تجزئته ، ومادام الشباب قد عين نفسه مسئولاً عن جزء فإنه يرتكب منكرًا آخر لأنه لا يتصدى بالقوة لكل هذه المنكرات الأخرى !!

إن عدم قيام الابن بأداء الصلاة منكر ، ومن حق أبيه أن يضر به على ذلك .. ولكن تصور شعور أى أب لو أن الذى تولى ضرب ابنه لأداء الصلاة شخص آخر ، هل يمكن أن يتحمل الأب ذلك ؟ هل سمعت عن أب يقبل أن يضرب ابنه من الآخرين لأنهم يريدون تربيته ويريدون منعه عن المنكر ؟ بل هل تقبل أنت شخصيًا أن يضربك شخص غير والدك على أداء الصلاة أو الصيام ؟

يضربك أبوك ، نعم هذا حقه ، ولكن يضربك أى شخص هذا غير مسموح به ولا تقبله ، فما الذى يعنيه هذا المثال البسيط ؟

يعنى أن لاستخدام القوة حدودًا وولاية ، وأنه إذا استخدمت القوة خارج حدود وولاية الشخص ، فإنها تنتج أضرارًا تفسد حركة المجتمع واستقراره وسلامه ، الأب ولايته على ابنه وهو الذى يملك أن يضربه ، أما الآخرون فحدود ولايتهم تجاه هذا الابن إذا رأوه يشرب الخمر أو لا يؤدى الصلاة ، حدودهم على هذا الابن هى النصيحة ، أما إذا كانوا لا يعرفونه وليست بينهم وبينه علاقة فإن كل ما يفعلونه هو أن يأسفوا فى نفوسهم على ما ارتكب مستنكرين بقلوبهم لما ارتكب ، ولو أن تغيير المنكر بالقوة أو باليد كان حقًا لكل إنسان فى المجتمع ، لما كانت هناك ضرورة أن يقول الرسول : فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه ، بل كان يقول من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، أو كان يقول من رأى منكم منكرا فليغيره ، وربما كانت هذه العبارة أوسع وأعم ، ولكنه ﷺ أراد أن يحدد الوسيلة بحسب ولاية الشخص وقدرته ، وإلا لما كان هناك داع إلى أجهزة أمن وإلى قضاة وإلى حكام ، ومثلها كان موجودًا أيام الرسول ، فكان هناك ولاة وحكام وقضاة ، وقد اختارهم الرسول وعينهم ليرجع إليهم الناس عندما يختلفون ، فإذا كان تغيير المنكر باليد هو حقًا من حقوق كل إنسان فلماذا إذن كان الحكام والولاة ومديرو الأمن والقضاة ، فالحاكم عن طريق الأجهزة التى يعينها هو الذى يملك إذن حق تغيير المنكر بالقوة ، وهذه الأجهزة ومعها المحكومون يملكون حق تغيير المنكر باللسان ، بالنصح والإرشاد والإبلاغ عن المخالفين ، والمحكوم حدود ولايته فى استخدام اليد أو القوة داخل أسرته ، الأب بالنسبة لأبنائه ، فإذا لم تكن للمواطن ولاية فى استخدام القوة أو اللسان كان له القلب هو الوسيلة الثالثة ، وهى القلب التى يقول فيها : «اللهم إن هذا منكر لا يرضيك» ، وفى جميع الأحوال يكون على هذا المواطن أن يبدأ بنفسه فى عدم ارتكاب المنكر بكل

صنوفه ، لا غش ، لا كذب ، لا خداع فى العمل ، الحفاظ على المال العام ، ولو أننا التزمنا بذلك ، أو لو أن هذا الشباب الذى يدعو إلى تغيير المنكر بالقوة التزم بأن يبدأ بنفسه هو لكانت النتيجة مجتمعًا أفضل كثيرًا..

عزيزى شريف :

لعلى أختم خطابى هذا بآية كريمة .. يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النساء : ﴿وقد نزَّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُسْتهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذًا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾ .. (الآية : ١٤٠) .

إننى أرجوك أن تقرأ هذه الآية مرة ثانية وثالثة .. وأسألك : هل هناك أبشع من الاستهزاء والسخرية بآيات الله ؟ هل هناك أفدح من أن تحضر مجلسًا يتم فيه ذلك ؟ أليس هذا منكرًا ؟ ومع ذلك ماذا قال الحق ؟ لم يقل اضرب من تسمعهم يقولون ذلك ، أو اعتد عليهم ، أو أوقف سخريتهم ، بل قال ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ أى اتركهم واهجرهم طوال فترة هذا الحديث الذى يسخرون فيه بآيات الله ثم عد إليهم عندما يخوضون فى حديث آخر ..

لعلى أطلت عليك هذه المرة ، ولكن عذرى هو قلقى على هذا الشباب ورغبتى الصادقة فى أن يبدأ بحقيقة مؤكدة ، هى أننا كنا فى مثل سنه نعتقد أننا عرفنا ما لم يعرفه الآخرون ، وعندما مضت بنا السنوات والخبرات اكتشفنا أن كل ما كنا نعرفه لم يكن سوى حروف قليلة فى سطور كثيرة بين صفحات عديدة وسط كتب لا أول لها ولا آخر..

ولكننا نموت فقط كل يوم

عزيزى شريف :

اتصلت بى والدة صديقك عصام تحكى لى عن الحيرة التى أصابتها وهى تواجه ابنها عقب وفاة أبيه . ولقد كتبت لى أنت من قبل عن هذا الحادث وقت وقوعه وقلت لى إنك كنت مع عصام فى النادى وقد شاهدت أباه ينتهى من رياضته اليومية ويدخل غرفة تغيير الملابس للاستحمام ، واستبدال ملابسه الرياضية ولكنكما فوجئتما بمن جاء يبلغ عصام بنبأ وفاة أبيه بسكتة قلبية مفاجئة .

كانت الصدمة شديدة ، فالأب كما رويت لى كان صغير السن لم يتجاوز الخامسة والأربعين وقد كان حريصًا على ممارسة رياضته اليومية ولم يكن كما قلت لى يدخن ، ولكن هاهو وبصورة بالغة المفاجاة يسقط متوفيا .

وقد ذكرت لى أرملة الزوج ووالدة صديقك عصام أنها لم تستطع أن تجيب عن أسئلة ابنها المتلاحقة عن سر وفاة أبيه ..

وقالت لى إنها لاحظت أن الابن بدأ يمارس التدخين ، وعندما لفتت نظره إلى أخطار التدخين فإنه نظر إليها وقال ساخرًا ما معناه ، وهل كان أبوه يدخن حتى يمكن القول أنه مات من التدخين ، فهو حرم نفسه من السيجارة ولكنه مات !

وأكثر من ذلك أن أخته أصبحت تلح على الأم فى عدم الخروج كثيرًا ، وإذا خرجت فإنها تطلب إليها أن تتصل بها دائما وإلا تتأخر ، وأحست الأم من تصرفات الابنة أنها أصبحت تخاف على أمها من الموت فجأة ، فكما خرج الأب ولم يعد ، فما الذى يضمن أن تخرج الأم هى الأخرى ولاتعود ؟

وهى كما ترى صورة حزينة درامية ، وربما كان أحد أسبابها أننا فى حوارنا نتجنب الحديث عن الموت ، مع أنه إذا كانت هناك عشر حقائق ثابتة فى الحياة فهو واحد منها ، وإذا كان هناك خمس حقائق فهو أيضا واحد منها ، وإذا كانت هناك حقيقة واحدة فالموت هو هذه الحقيقة الواحدة .

ومع أنه لم يحدث منذ بداية الحياة أن هرب كائن حر من الموت إلا أن كثيرًا من البشر يتصورون أنهم قد لا يسرى عليهم فى موضوع الموت ما جرى لكل الملايين الآخرين الذين ماتوا وسيموتون ..

وربما كان طبيعيًا أن يسأل الإنسان نفسه : لماذا الموت ؟

لماذا اختطاف الأحباب والأزواج والأصدقاء والأبناء والآباء والأمهات والأخوات ؟

لماذا عصرة الحزن التى تلوى النفس عندما تفقد من تحبه سواء كان ابنًا أو زوجًا أو شريكًا ؟

لماذا يموت الأب أحيانًا صغيرًا ؟ ولماذا تموت بعض الأمهات وهن شابات ؟ ولماذا يخطف الموت بعض الأبناء وهم مازالوا صغارًا ؟

لماذا يموت الإنسان على فراش المرض ، أو تحت عجلات سيارة ، أو فى حرب ، أو بغير ما سبب واضح ؟

لماذا يموت الإنسان أحيانًا فى بيته ، وأحيانًا أخرى خارج بيته ، وأحيانًا بعيدًا عن بلاده ..

لماذا يخرج البعض ولا يعودون ؟

وستظل تردد لماذا ولماذا ولماذا وتجد أن هذا هو سر الموت ، إنك لو تصورت الحياة بدون موت لكرهتها ، تصور أن كل الذين ولدوا منذ بدء الحياة قد امتد بهم العمر ، وأنت عندما تقول الحياة لا يجب أن تتوقف عند الإنسان فالحياة تعنى كل الكائنات الحية ، تعنى الأسد والصرصار ، والفأر والنمر والميكروبات ، والهوام والحشرات .. فإذا كنت لا تريد الموت للإنسان فكيف تريد لبقية الكائنات الأخرى الحية ؟

إن القاعدة التى يجب أن تعرفها أن كل كائن حى يعنى بداية ونهاية ، مولدًا وموتًا ، ظهورًا واختفاء ، شروقًا وغروبًا هكذا الدنيا منذ خلقها الله : نهار وليل ، نور وظلام ، صيف وشتاء ، حر وبرد ..

فإذا كنت تفكر فى عدم موت الإنسان لكان من الضرورى أن يمتد ذلك إلى كل الكائنات الحية ، فهل يمكن لواحد تصور الحياة بدون أن تموت هذه الكائنات الحية ؟

ولكن تأثير الموت بالنسبة للإنسان بالذات أمر مختلف ؟

فلك أن تتصور كيف تكون مشاعر الإنسان قاسية لو لم يكن هناك موت ؟ والواقع أننا لا نخاف الموت ، لا أحد فينا يخاف الموت كموت ، وإنما نحن نخاف ما بعد الموت .

وعلى امتداد البشرية لم يحدث أن ذهب واحد وجاء ليحكى لنا ماذا رأى بعد الموت ..

حتى الذين يقولون إنهم التقوا بالموت لم يحدث أن التقوا به ، لأن الذى يلتقى بالموت لا يعود أبدًا ، وإذا عاد فإنه يخيل إليه أنه التقى بالموت وهو ليس صحيحًا ..

ومن الطبيعى أن تخاف مما بعد الموت ، لأن هذا الخوف يعنى أن هناك خالقا لهذا المكان ستواجهه ..

فالذين يموتون لا يذهبون إلى مجهول ، وإنما يذهبون إلى لقاء ربهم..

وهذا اللقاء لم يحدد الله موعده ، فالأزواج مثلا يستطيعون التحكم فى موعد الإنجاب ، والمعروف علميًا أن الجنين يتم وضعه بعد تسعة أشهر ، وأما بالنسبة للموت فليست هناك قاعدة ..

ليست هناك سن تحدده ، ولا جنس ، ولا طبقة ، ولا مهنة ، ولا زمان ، ولا مكان ..

أعرف صديقًا أجرى له الطبيب رسم قلب وخبط على كتفه وهو يقول له : قلبك زى البمب ، وقام الصديق وارتدى ملابسه وما كاد يغادر الغرفة التى تم فيها رسم قلبه حتى سقط ميتًا بالسكتة القلبية – ولم يكن الطبيب الذى أجرى رسم القلب يغش صديقه وإنما قلب هذا الصديق كان سليمًا معافى وزى البمب فعلاً وقت إجراء الكشف على قلبه ، ثم بعد دقائق قليلة أصاب القلب ما جعله يتوقف ..

وهكذا ، فليست هناك قاعدة يمكن أن يضمن بها إنسان حياة إنسان آخر .. لا أحد يضمن أحدًا ..

فإذا ضمنه فى ألا يموت بالقلب فما الذى يضمن ألا يموت فى حادث أو لسبب آخر من آلاف الأسباب الأخرى التى قال عنها الشاعر «تعددت الأسباب والموت واحد»

وألا يكون لموت الإنسان موعد محدد أمر قصده الخالق ..

إن كثيرين لا يذكرون الله عندما يولد الإنسان ، ولكن كل واحد يذكر الله عندما يموت الإنسان ، فما الذى يعنيه ذلك ؟

إن تاريخ البشرية حافل بالرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله إلى البشر لكى يؤكدوا لهم أن هناك خالقًا لهذا العالم اسمه الله .

وقد تعددت المعجزات التى جاء بها الرسل ليؤكدوا حقيقة وجود الله .

والمعجزة تعنى البينة ، والبينة تعنى الدليل ، والإنسان فى حاجة إلى دليل لكى يتأكد من وجود الله ..

وبعض المعجزات التى جاء بها بعض الأنبياء كانت مرتبطة بزمانها ، فعصا موسى التى التهمت كل العصى الأخرى رآها الذين عاشوا هذه المعجزة .. ويده التى وضعها فى جيبه وأخرجها وكانت بيضاء من غير سوء أيضًا شاهدها الذين كانوا يعيشون فى ذلك الزمان ..

ولكنك إذا نظرت إلى ما وصل إليه بعض السحرة اليوم من ألعاب مذهلة تجد أن بعضهم يقوم بعرض قفص فى داخله أسد ثم يغطى هذا الأسد بقطعة قماش كبيرة ما أن يرفعها حتى نجد هذا الأسد وقد اختفى من القفص ، ثم يكرر عملية التغطية مرة ثانية ويرفع الغطاء فتجد نمرا مكان الأسد ..

فهل إذا جاء من يقول إن دليلى إلى وجود الله أنه أرسل رسولاً ألقى عصاه والتهمت عصى السحرة فهل يكون هذا الذى يقال عنه دليلاً كافيًا على وجود الله بينما فى زماننا تطورت أعمال السحر إلى ما هو أغرب وأعجب ؟

وقد كان الله يعرف كل التطورات التى سيصل إليها العالم ، وبالتالى فإنه عندما أراد أن يختم رسالاته ويبعث رسوله الأخير إلى البشرية فإنه أرسله حاملاً الدليل الدائم المستمر الباقى الخالد الذى يؤكد لكل إنسان فى كل زمان وكل مكان أنه من عند الله .. وأن أحدا من البشر لن يستطيع أن يأتى بما فى هذه المعجزة الأبدية التى جاء بها الرسول من أسرار .

هذا الدليل هو القرآن الكريم ..

ما تضمنته آياته ..

ولك أن تعود إلى الوراء ١٤٠٠ سنة .. يوم لم يكن هناك علوم ، ورغم ذلك تجد رسولاً أميًا يقول مرددًا آيات الله ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة

مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ [سورة المؤمنون الآيات ١٢ إلى ١٦]

من الذى كان يعرف كل هذه الأسرار بل من الذى كان يجرؤ أن يقول إنه يعرف عنها وبهذا الإعجاز فى التسلسل ؟

إذن فالدليل على الله يعيش معنا طالما كان هناك قرآنه الذى سيكتشف فيه كل جيل ما لم يره الجيل الذى سبقه ..

وإذا كنا نموت كل يوم عندما ننام ثم نفتح عيوننا دون أن نعرف كم نمنا ، فما الفارق إذا كنا قد نمنا ساعة أو الف سنة ؟

مادمنا نموت ونصحو دون أن نعرف كم نمنا فهكذا يكون الموت ..

وعلينا أن نستعد لما بعد الموت .. فالموت فى ذاته يحرمنا من الأحباب بكل صورهم ، أما ما بعد الموت فهو الذى يهم المتوفى ، لأن فيه الامتحان ..

وربما سمعت فى امتحانات البشرية عن الغش والاستثناءات والمحسوبيات ولكن امتحان الخالق مختلف تمامًا .

امتحان الخالق لاغش فيه ولا استثناءات ولا محسوبيات .

أنت أمام عادل ، منصف يحصى عليك كل شىء ويعطيك حقك كاملاً ، ما فعلت من حسنات وما ارتكبت من سيئات .

هذا هو الموت ببساطة شديدة ..

ولكن أحزاننا لفراق من نحب تغطى على عظة الموت وعبرته ..

مع أنه لولا الموت ما فعلنا الحسنات ، وما سادت الرحمة قلوب الناس ولانتشر الظلم واختفى العدل ..

فاحزن ياولدى من الموت ، ولكن تعامل معه على أنه حقيقة ..

واعرف أن كل التساؤلات الغامضة التى تسألها وتحتار فى الإجابة عنها لها على عكس ما تتصور جواب واحد هو : الله .. الله ..

لغز الموت بكل أسراره أن هناك الله ..

وقد سمح الله للإنسان باكتشاف ملايين الأسرار . ولكن بقى سر الموت .. لم ولن يكتشفه الإنسان ..

وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها سيبقى القرآن دليله ومعجزته والموت نهاية كل مخلوق .. و إلا مالفرق بين الخالق والمخلوق ؟!

تعلمت من مهنة الصحافة ..

عزيزى شريف :

منذ شهور طويلة يلح على سؤالك الذى سألته لى فى رسالة بعثت بها إلى لعلك نسيتها ، تطالبنى فيها بأن أكتب إليك بعض دروس المهنة التى أنتسب إليها ، على أساس أن أكون لك مرشدًا وهاديًا فى طريقك .

وأنت تعرف أننى لم أحاول أبدًا أن أعتلى يومًا منبر الخطباء الذين يحولون كلامهم إلى نصائح يطالبون الناس باتباعها ، وكل ما أحاوله فى رسائلى إليك هو أن أضع أمامك بعضا من أفكارى التى أفكر فيها بصوت عال ، أو إن شئت الدقة بكلمة مكتوبة ..

ثم إننى مازلت أعتقد أننى فى سن صغيرة لم تصل بعد إلى مرحلة الجلوس فوق مقعد الناصحين ، وقد يبدو فارق السن بينى وبينك كبيرًا ، ولكن السن هى إحساس نفسى ومادى معًا ، إحساس نفسى وأمره معروف ، أما الإحساس المادى فهو أن يشعر الإنسان بأنه يعرف شيئًا يمكنه أن يقوله للآخرين ، ولعل هذا أحد الدروس التى تعلمتها من حياتى فى هذه المهنة الصحفية التى بلغت هذا العام ٣٥ سنة ، إنها فترة طويلة تعلمت فيها الكثير ، ومادمت قد طلبت فإننى أقول لك بناء على طلبك : نعم كانت هناك دروس واضحة تصل إلى حد المبادئ التى أستطيع أن أتحدث عنهـا بصوت عال ، ويمكنك أن تختار

من بينها ما تشاء وأنا واثق أن فيها ما سوف يفيدك ويفيد غيرك من زملائك وأقرانك ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أحكم على إنسان خصوصًا إذا كان فى منصب عام إلا اذا اقتربت منه وعرفت عنه ، ذلك أننى اكتشفت أن أحكام الآخرين كثيرًا ما تخضع لأمزجتهم الشخصية ومنافعهم الخاصة من هذا الذى يحكمون عليه ، بل غير ذلك وجدت الكثيرين يصدرون أحكامهم ويعبرون عنها بصوت عال دون أن يكونوا قد عرفوا عن قرب هذا الذى يتحدثون عنه ، وفى بداية حياتى كنت آخذ بالسمع ، ثم مع كثرة الصدمات التى تلقيتها عندما اكتشفت فى أشخاص اقتربت منهم مدى بعد الأحكام الصادرة ضدهم عن الحقيقة ، بدأت أسأل نفسى : ولماذا أخضع لرأى الآخرين ؟ لماذا آخذ أحكامهم قضية مسلمة أتبناها أنا وأدافع عنها وأعتبرها أحكامًا صادرة منى شخصيًا ؟ إن أمانة الكلمة تقتضى ألا أحكم قبل أن أعرف ، وألا أعرف قبل أن أقترب من هؤلاء الآخرين ..

نعم تعلمت ..

تعلمت أن أكون صادقًا فيما أكتب ، وتعلمت أن القارئ البسيط يستطيع أن يستشعر هذا الصدق ويميز بينه بكل دقة وبين عكسه ..

أذكر أن الأستاذ إبراهيم الوردانى طلب منى أن أكتب له مقدمة كتابه «فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة» فما كان منى إلا أن كتبت بكل أمانة وصدق فضل إبراهيم الوردانى علىّ فى حب الكتابة ، فقد كان بحق ناظر أول مدرسة تعلمت فيها معنى أن أكتب ، وأن يكون لما أكتبه هدف أو طعم أو مذاق ، وكنت أول من يعترف ويسجل ذلك كتابة على نفسه ، لم يسبق على ما أذكر أن أعطى أحد كتّاب جيل فضلاً للأستاذ إبراهيم الوردانى عليه ، لكننى بكل الصدق مع النفس أعطيه هذا الفضل ، وعلى عكس ما قاله زميل تخوف أن أخرج على الناس بغير ما تعودوا عليه من أن أساتذتى هم طه حسين والعقاد وأحمد

أمين وغيرهم ، فإننى أحسست بالتقدير الكبير لما قلت ، وكانت سعادتى أكبر عندما كتب آخرون كثيرون عن كتاب الأستاذ الوردانى وقد تذكر كثيرون إعجابهم بجواهر كلماته وكنوز التعبيرات الغريبة المميزة التى يغترف منها أوصافه وكلماته ..

نعم تعلمت ..

تعلمت أن تكون هناك قيم سامية أحاول الحرص عليها ، قيم لا أتحدث عنها وإنما أتمسك بها ، لا أكتبها لافتات تجذب الأنظار وإنما أترك القارئ يستشفها ويستشعر طريقها عبر الكلمات والحروف ..

إن الكاتب الذى بلا قيم مثل الشجرة التى بلا جذور ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أتطلع فيما أكتب إلى إعجاب القارئ وإنما إلى احترامه ، إلى تقديره لا إلى رضاه ..

ليس المهم أن أتفق مع القارئ فى رأيه : فمن المستحيل أن يرضى الكاتب كل الأفكار والأذواق والاتجاهات ، ولكن من السهل أن يكسب احترامهم وتقديرهم حتى إذا اختلف معهم ماداموا يحسون فيه الصدق ، وماداموا يحسون فيه أنه يحاول مخاطبة عقولهم لاعواطفهم فقط ، وإنه لا يستسهل الإمساك بالقلم ليكتب أى شىء فى أى شىء ، وإنما يسبق الإمساك بالقلم جهد كبير قام به فى التفكير والبحث ومحاولة المعرفة ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أضيق بنقد يوجه إلىَّ ، فأنا أمارس دور الناقد ، ومن حق الآخرين علىَّ أن يقولوا أيضًا رأيهم ، وإلا فما أسوأ أن تقول ما لا تقبل ، وأن تحرم على الآخرين ما تحله لنفسك ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أمس طهارة شخص وألا أشك فى ذمة شخص ولا فى سيرة إنسان إلا إذا عرفت بالخبرة والمعرفة والدلائل التى أمسك بها حقيقة ما أقول ، كل الناس فى نظرى أبرياء إلى أن يتضح العكس بالنسبة لأى منهم ..

نعم تعلمت ..

تعلمت أن الدنيا ليست كلها خيرًا كما أنها ليست كلها شرًّا ، وبقدر ما فيك فى داخلك من خير يكون إحساسك بالخير ، وبقدر ما فيك فى داخلك من شر يكون إحساسك ولقاؤك بالشر ..

نعم تعلمت ..

تعلمت أن أعظم مشاعر السعادة يكون فى لحظة عطاء بدون استعراض ، وأن العلاقات الإنسانية ليس أساسها علم الحساب : فلان أعطيه كذا ويجب أن يعطينى كذا ، الخير هو البذور الوحيدة التى تزرعها فى أرض وتحصد ثمارها فى أراض أخرى ، ولو زرعت خيرًا بقصد أن تحصده أو تنتظر ثماره فسوف يطول انتظارك ، ولو ألقيت بذور خيرك دون أن تنتظر مردودًا فوسف تفاجأ بسرعة هذا المردود ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أتمسك برأى اكتشفت خطأه ، فالشجاعة الحقيقية ليست فى قوة التمسك بالخطأ وإنما فى قوة العدول عنه إذا اكتشفت هذا الخطأ ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أعطى علاقاتى الخاصة امتياز تأثيرها على أفكار عامة أقولها ، أو أن أحكم على الأمور من خلال مشاكلى الخاصة وظروفى الخاصة ..

القارئ يريد أن تتحدث عن مشاكله لا أن تحدثه عن مشاكلك ، همومك مهما كانت فهموم المواطن فى نظره أكبر ، ويريد منك وقد أمسكت بالقلم أن تعبر عن هذه الهموم الكبيرة لا همومك الصغيرة فى رأيه .. مع أن همومك

قد تكون أعظم وأكبر ولكنه يرى لمجرد أن معك قلمًا أن وظيفتك أن تكتب عنه لا عنك ، وهو على حق ..

نعم تعلمت ..

تعلمت ألا أتصور أبدًا أننى أصبحت أعرف كل شيء عن أى شيء ، كل كتاب أقرؤه ، كل موضوع ، أحس أننى تعلمت شيئًا جديدًا منه ، وأن هناك الكثير الذى يجب أن أعرفه ، فالحياة سابق إلى المعرفة ، وكما أن الأرض كروية فكذلك المعرفة ، ولهذا تبدو لنا تلك المعرفة كأننا نمسك بها ، ولكننا مانكاد نقترب منها حتى نراها كما نرى الأرض ، بعيدة دائمًا عن أن نمسك بها أو نعرف حدودًا لنهايتها..

عزيزى شريف :

هل ضايقتك ببعض ما تعلمت ؟

لقد كنت أنت الذى طلبت ، فلعلى أكون قد وفيت ..